تاريخ العرب من شعرهم القديم

اطلعنا على مقالة انكليزية في هذا الموضوع للسر تشارلس ليَل المستشرق الشهير تلاها في مؤتمر الدروس التاريخية في شهر ابريل الماضي فوجدناها حرية بان يطلع عليها ادباؤنا ليروا كيف يبحث علماء اوربا عن تاريخ العرب ويتجشمون المشاق في تحقيق قضاياهُ . قال الكاتب :— ان تغلُّب العرب على مملكة الفرس كلها ونصف مملكة الروم في القرن السابع من اعجب حوادث التاريخ . فمن الجهة الواحدة نرى جيوش دولتين عظيمتين دولة الروم ودولة الفرس اللتين بقيتا ثلاثة قرون تتنازعان السيادة فتمرَّن قوادها على قيادة الجيوش وقووا على قهر الاعداء ولاسيما الذين كانوا يعدونهم برابرة لا يحسب لهم حساب ولو ان حروب تينك الدولتين استنزفت قواها . ومن الجهة الاخرى نرى جموعاً ربوا على شظف العيش من قبائل شتَّى متخاصمة متعادية فلال السلاح فلال الدربة الحربية تجاه الجنود المنظمة لا حلفاء لهم يستنصرونهم لكنهم ساروا الى النصر بقدم ثابتة فكان حليفاً لهم في كل مواقعهم

ماذا حدث وما هي الاسباب التي اوجبت نقوُّض العمران القديم امام تلك الدولة الجديدة . هذه مسألة تاريخية سبق من اهم مسائل التاريخ

اخبار دولة الروم مسطورة في تواريخها واخبار دولة الفرس نعرف من بعض المصادر السريانية ومن تاريخ آل ساسان وقد ذكرها الطبري نقلاً عن الخداي نامه . ولكن تواريخ الروم وتواريخ الفرس قلما يذكر فيها شيءٌ عن قيام العرب وتغلبهم على الاقطار . وليس البحث في ذلك من غرضي الآن وانما مرادي النظر في الاسانيد التي يعلم منها تاريخ العرب مدة القرن السابق لظهور الاسلام وتغلُّبهم على الروم والفرس . وهذه الاسانيد متضمنة في الاشعار العربية القديمة التي اقدم ما وصل الينا منها لا يمتد تاريخهُ الى ابعد من بداءة القرن السادس المسيحي

كانت هذه الاشعار تتناقل بالحفظ من غير تدوين الاَّ في ما ندر ولم تدوَّن الاَّ في اواخر المئة الاولى من الهجرة . وهي ممَّا قالهُ العرب في بواديهم ووصفوا به معيشتهم وناظموها من الذين اقاموا وزن الشعر وكان منهم جماعة في كل قبيلة وهم في الغالب فرسان وصفوا فعالهم وفعال رجالهم

والاشعار التي حفظت من عهد الجاهلية الى الآن غير قليلة ولكن الذين جمعوها

حينما ترعرع الادب في النصف الاخير من دولة بني امية واوائل دولة العباسيين قالوا انها كانت اكثر من ذلك كثيراً ولكنها فقدت بموت الحفّاظ والرواة قبل ان تدوّن

والمرجح ان اقدم ما وصل الينا منها هو من اواخر القرن الخامس لليلاد واوائل السادس ومداره على الحرب التي نشبت بين بكر وتغلب في اليمامة مدة نحو اربعين سنة وهي المعروفة بحرب البسوس وقد اشتهر فيها بعض الشعراء من الطرفين كالمهلهل امير تغلب ولعلّهُ اقدم شاعر عربي وصل الينا شيءٌ من شعره فقد ذكر لهُ الاصمعي الذي توفي سنة ٢١٦ للهجرة قصيدتين . ومن الشعراء المعاصرين على ما يرجّح المرقّش الاكبر البكري ولهُ اشعار في المفضليات التي جُمعت سنة ١٦٨ للهجرة . ثم اصلح المنذر الثالث ملك الحيرة بين بكر وتغلب وكان لهُ سلطة واسعة على قبائل العرب ولكن بقيت من تلك الحرب حزازات في الصدور كما يظهر من معلقة عمرو بن كلثوم التغلبي والحارث بن حلزة اليشكري وهو من بني بكر . وقد نظمت هاتان المعلقتان بين سنة ٥٥٦ وسنة ٥٦٨ لليلاد وتدلان على ان الاحقاد بقيت بين قبائل بكر وتغلب الى زمن المنذر ملك الحيرة

وكانت قبيلة كندة واصلها من اليمن قد نزلت في الجانب الشمالي من بلاد العرب في النصف الاخير من القرن الخامس والثلث الاول من السادس وصار لها فيهِ شأن كبير وتزوج ملكها في بني معد وجعل القصيم عاصمتهُ حيث البريدة وعنيزة الآن في وادي الرمة . وبلغت كندة اوج مجدها في اواخر القرن الخامس واوائل السادس حينما خرج الملك الحارث الى تخوم الروم غازياً وملك الحيرة مدة من الزمن وكان المنذر الثالث عدو الروم الالد صهرهُ ثم صار الد اعدائهِ . وابن الحارث حُجْر ابو امرء القيس المعدود اشعر شعراء الجاهلية وقد حُفظ اكثر اشعارهِ الى الآن . وكان حجْر ملكاً في بني اسد واعتز الشعر في عهدهِ ونبغ من بني اسد عَبيد بن الابرص وقد وُجدت نسخة من شعرهِ في دار التحف البريطانية قُفل للطبع . وقتل حُجْر في نحو سنة ٥٣٠ لليلاد بعدما مات الحارث ملك كندة وعلى قتلهِ مدار كثير من اشعار امرء القيس وعبيد بن الابرص . ويعلم من اشعارهما انهُ قام حينئذٍ غيرهما من الشعراء ولكن لم يصل الينا شيءٌ من اشعارهم

ولما انقضى امر كندة وسّع ملوك الحيرة نطاق مملكتهم فشملت النصف الشمالي من جزيرة العرب والجانب الشرقي منها مما يلي خليج فارس . ويكثر ذكر المنذر الثالث وابنهِ عمرو بن هند في اشعار ذلك العصر . وملك المنذر من سنة ٥٠٥ الى سنة ٥٥٤ لليلاد وابنهُ عمرو من سنة ٥٥٤ الى سنة ٥٦٩ وقُتل عمرو في مجلسهِ قتلهُ عمرو بن كلثوم التغلبي وخلفهُ

اثنان من اخوته ومنكا سنين قبلة وخلفهما الملك النعمان ابو قابوس آخر ملوك الحيرة بين سنة ٥٨٠ وسنة ٦٠٢ او ٦٠٣ . وكان الشعراء يفدون على هؤلاء الملوك من قبائل شتى وبقي كثير من اشعارهم الى الآن

وكان في اطراف بلاد الروم ملوك غسان من آل جفنة عمّال القياصرة وكانوا نصارى . لم يتركوا البداوة ولكن كان عندهم كثير من رفاه الحضر وكان الشعراء يقصدونهم من قبائل العرب . واشهر ملوكهم الحارث الاعرج بن جبلة الذي ملك من سنة ٥٢٩ الى سنة ٥٦٩ وهو الذي وفد عليه علقمة بن عَبَدة التميمي ومدحه بقصيدته المذكورة بين المفضليات(١) ويذكر ايضاً في شعر عُبَيْد وامرء القيس . ومن خلفائه عمرو بن الحارث الاعرج ممدوح النابغة الذبياني في العقد الاخير من القرن السادس على الراجح

وفي تلك الاثناء كانت الحروب متواصلة بين قبائل العرب ويصعب علينا استقصاء اسبابها وتفاصيلها . واشهرها من حيث ما نُظم فيها من الشعر حرب داحس والغبراء بين قبيلتي عبس وذبيان وكلتاهما من بني غطفان ويقال انها دامت اربعين سنة ولكن المرجح ان في ذلك مبالغة كبيرة . ومن الشعراء الذين اشتهروا حينئذٍ النابغة الذبياني وعنترة العبسي وزهير بن ابي سلمى المازني . وقد ذكر زهير في معلقته انقضاء تلك الحرب وعقد الصلح بين المتحاربين والمرجح ان ذلك حدث في آخر القرن السادس

وكثر الشعراء في العشرين السنة التالية واشهرهم ميمون الاعشى وقيس بن ثعلبة من بكر سكان اليمامة ولبيد وجعفر بن كلاب من عامر بن صعصعة وحاتم الطائي وبشر بن ابي خازم الاسدي وكعب بن زهير وقد بقيت دواوينهم الى الآن . ومن شعراء ذلك العصر وفرسانهم المعدودين عامر بن الطُّفيل الذي يطبع ديوانهُ الآن اول مرة ومنهم طفيل الغنوي ولهُ ديوان لم يكن معروفاً وسيمثّل للطبع

قلت ان اشعار هؤلاء الشعراء لم يكتب منها حينما قيلت الاّ القليل ومن هذا القليل اشعار عدي بن زيد وهو تميمي من نصارى الحيرة ويظهر من اشعاره انهُ كان عارفاً بامور الملك النعمان ابي قابوس وقد حبسهُ النعمان فجعل ينظم القصائد ويبعث بها اليه ليطلقهُ وذلك

---

(١) (المفضليات) وهي التي يقول في مطلعها

طحا بك قلب في الشباب طروبُ بعيد الشباب عصر حان مشيبُ

ومنها اذا شاب راس المرء او قلّ ماله فليس له في ودهنّ نصيبُ

يستلزم ان قصائدهُ كانت تكتب[1] . وتدل اشعارهُ على انهُ من سكان المدن الذين عاشروا الوزراء في قصور الفرس وقد جمعت الآن وسينشرها صديقي المستر كرنكو . ومن الذين كُتبت قصائدهم امية بن ابي الصلت وهو حضري من اهل الطائف وكان معاصراً لنبي محمد وقد جمعت اشعارهُ المحفوظة وطبعت سنة ١٩١١ : طبعها الاستاذ شلتس ويستدل منها على ان قصص التوراة والانجيل كانت معروفة في ذلك العصر في مكة وما جاورها

ثم جاء الاسلام وانصرف العرب عن الحروب الداخلية الى فتح البلدان فاثَّر ذلك في اشعار شعرائهم المخضرمين اصحاب الدواوين كالحطيئة والشمّاخ والخنساء وابي ذؤيب وغيرهم من الذين ذكرت بعض اشعارهم في المفضليات لكنهم لم يأتمروا باوامر الاسلام فبقوا يمدحون الخمر والازلام ويباهون بالاسراف في اقراء الضيف والبسالة في مواقع القتال ويهجو بعضهم بعضاً . واقتصر الشعر حينئذٍ على المدح والهجو . والشعراء الذين نشأوا في القرن الاول بعد الهجرة وطبعت دواوينهم هم النرزدق وجرير وهما من تميم والاخطل وهو مسيحي من تغلب والكُميت من اسد وكلهم من المبرزين في المدح والهجاء . وأكثر عُمَر بن ابي ربيعة القرشي من الغزل . وكان ذو الرمة آخر من حفظ مقام الشعر حتى قيل انهُ بهِ ختم الشعر البدوي[2] . وتوفي ذو الرمة سنة ١١٧ للهجرة وعمرهُ اربعون سنة وقد صحّح ديوانهُ صديقي المستر مكرتني وهو الآن تحت الطبع

الاشعار المشار اليها في ما تقدم تتناول مئتي سنة ففيها اسانيد موثوق بها لمن الذي قيلت فيهِ . وليس من غرضي الآن البحث في صحة هذه الاشعار فان ذلك مذكور في مقدمة ديوان عبيد بن الابرص الذي سينشر قريباً وحسبي ان اقول الآن ان اكثر الاشعار التي وصلت الينا صحيح النسبة منطبق على احوال العصر الذي تنسب اليهِ وهو من نظم الشعراء الذين يعزى اليهم ولو وجدت فيهِ ابيات وقصائد مزورة ليست لهم

لكن الاشعار نفسها ليست تاريخية وليس عند العرب شعر تاريخي بحت . وما تشير اليهِ من الحوادث التاريخية يذكر عرضاً وعلى غاية الايجاز . والغالب ان الفعل الذي يصفهُ الشاعر يكون هو الفاعل لهُ فيبالغ فيهِ ويغالي بمفاخر قومهِ او يذم اعداءهُ ويزدريهم ويبالغ في ما اصابهم من الانخذال ويتنهم اشد الامتهان . وحيثما ذُكرت الحروب في الاشعار فالمبالغات

---

(١) (المقتطف) هذا الاستدلال على الكتابة ضعيف فان القرائين في بلاد الشام ينظمون القصائد ويرسلونها من مكان الى آخر وهم لا يكتبون ولا تكتب قصائدهم بل تنقل بالسماع

(٢) (المقتطف) يقال بدأ الشعر بامرئ القيس وختم بذي الرمة

على اشتباهها . ولا تفهم الحقيقة من وراء هذه الاشعار مالم تُعلَم الاحوال التي قيلت فيها . وهي تعلم مما كتبهُ الباحثون الذي قاموا في المئة الاولى والثانية بعد الهجرة وجمعوا اخبار العرب من افواه الرواة . وقد اشتغل كثيرون بذلك لما اخذوا في تدوين الاشعار وكان ادقهم بحثاً واشهرهم ذكراً هشام بن الكلبي ومعمر بن المثنى المعروف بابي عبيدة . اما ابن الكلبي فتوفي سنة ٢٠٤ للهجرة وهو اول من جمع الاسانيد للدلالة على السنين التي حكم فيها ملوك الحيرة وغسّان وكندة وانساب القبائل واخبارهم ونحو ذلك مما تجدهُ في تاريخ العرب . واخبارهُ عن ايام العرب المذكورة في اشعارهم وعن ترجمات مشاهيرهم حافلة بغرر الفوائد ودرر النوادر والوصف الذي يقوم مقام التصوير . ولكن يؤخذ عليهِ انهُ كان يفضّل اليمانيين على بني معدّ فان قومهُ بني كلب من قضاعة وهم ينسبون الى اليمن ولذلك لا يخلو كلامهُ من النعرة القومية حينما يقابل بين اقوام من اليمن واقوام من معدّ . والظاهر انهُ كان اذا اراد الوقيعة بفرسان معد نظم اشعاراً تؤيد مرادهُ ونسبها الى اهل العصر الذي كان يتكلّم عليهِ . وتوفي ابو عبيدة سنة ٢٠٩ للهجرة وعمرهُ مئة سنة وكان متصفاً لا يتحزب لقوم على قوم . وكلامهُ مسهب مفصّل واسانيدهُ كاملة (انظر فهرست النقائض) واذا ذكر الاسانيد لم يذكرها على علاّتها بل انتقدها في الغالب . وهو اصلاً من يهود العراق الذين اسلموا ولذلك لم تكن فيهِ نعرة قومية لفريق من العرب على فريق آخر بل كانت غايتهُ التدقيق والتمحيص في ما ينقلهُ من الاخبار . وقد قال ابن خلّكان ان ابا عبيدة هذا هو مؤلف الكتاب المعروف بالمثالب الذي انتقص فيهِ العرب على مذهب اهل زمانهِ لانهُ لما قوي شأن الفرس في زمن العباسيين كثر ذم العرب . فاذا صحّ ذلك فابو عبيدة لم يستنبط المثالب ولا بالغ فيها بل ذكر منها ما كان يذكر في عصرهِ

ولم يصل الينا شيءٌ على اصلهِ من كتب ابن الكلبي ولا من كتب ابي عبيدة في ما يُعلَم ولكن أُلفت كتب لا تحصى في الادب والتاريخ نُقلت عن كتبهما اوسعها كتاب الاغاني لابي الفرج الاصفهاني المتوفى سنة ٣٥٦ للهجرة وقد تسهلت مراجعة هذا الكتاب الآن بالفهارس التي وضعها لهُ الاستاذ غويدي . والكتاب اشهر من ان يذكر . والمجلد الاول من تاريخ ابن الاثير المعروف بالكامل يحوي مختصر كتاب ابي عبيدة المعروف بأيام العرب . وهو كبير الفائدة ولكنهُ غير متقن الطبع ولاسيما في اشعارهِ . وشرح النقائض او مهاجي جرير والفرزدق الذي تمّ تصحيحهُ حديثاً على يد الاستاذ بيفان خير من كتاب الاغاني حيث يبحثان في موضوع واحد . وفي النقائض كثير من الاشارات الى مناحي العرب

في الجاهلية ولهُ شرح قد مفيد آخر من وضع قلهُ فيه ابو عبد الله اليزيدي المتوفى سنة ٣١٠ للهجرة . فان في هذا الشرح اقتباسات كبيرة من كتاب ابي عبيدة « ايام العرب » وقد فسّر ما فيها من غامض اللغة وقوبلت احياناً بما يضارعها من الاخبار حتى لم تبقَ حاجة لطالب من حيث الاخبار المذكورة فيها . والفهارس التي وضعها الاستاذ بيقان تسهل مراجعة الكتاب غاية التسهيل وقد الحق به ايضاً معجم كبير الفائدة

ومن الكتب التي تطبع الآن وينتظر ان يتم طبعها قريباً المفضليات وهي الاشعار التي جمعها المفضّل الضبّي وهو من العلماء الذين نشأوا في عهد بني امية وبني العباس وتوفي سنة ١٦٨ . وعلى المفضليات شرح للقاسم الانباري وطبعهُ جارٍ مع المتن . وفيه كما في شرح النقائض وصف مسهب للحوادث التي تشير الاشعار اليها مقتبس اكثرهُ من كتاب ابن الكلبي . وشرح التبريزي على حماسة ابي تمام الذي طبع منذ سنة ١٨٢٨ يشبه شرح النقائض ولكنهُ ليس موثوقاً به مثلهُ

وحينما تقابل الاشعار بالاخبار المتواترة التي تشير الاشعار اليها نجد نقصاً كبيراً فيها فاننا نرى اشياء مبهمة ولا ما يوضحها لان الذين كانوا قادرين على ايضاحها ماتوا قبلما جُمعت . وكثيراً ما يرى اختلاف بين الاشعار والاخبار ولكن لا يعذر تصحيح الخطإ لان الاشعار كثيرة والاخبار وافرة فيمكن الوصول الى التوفيق بينها بالبحث والاستقصاء ولو في امهات الحوادث وفي ما يتعلّق بمجال معيشة العرب في القرن الذي نشأت فيهِ دولتهم . وزد على ذلك ان احوال المعيشة في بلاد العرب التي دعا اليها اقليم البلاد وطبيعتها تغلبت على القوى العظيمة التي وحّدت قبائل العرب في القرن السابع وجعلتهم يخرجون من بلادهم غازين فاتحين وذلك لاسباب لا استطيع ايضاحها الآن . ولا يزال عرب البادية يعيشون الآن في بواديهم كما عاش اسلافهم منذ ثلاثة عشر قرناً . فلا تزال اخلاقهم كما كانت وعداواتهم على ما كانت عليهِ . يعيشون بالغزو والنهب ويجرون على سننهم القديمة في معاملاتهم واقرائهم الضيف كما كانوا قبل الاسلام . ولذلك فالذين يجوبون بلاد العرب الآن يرون من احوال قبائلها وطرق معيشتهم ما ينطبق وصفهُ على ما في اشعار الجاهلية . فاحسن شرح لما بقي من اشعار العرب واخبارهم من القرن السادس والسابع لليلاد هو كتاب وطنينا تشارلس دوتي المسمى Arabia Deserta واضيف الى ذلك كتاب العالم الذي فقدناهُ حديثاً يوليوس ليوتخ وما كتبهُ الريزموزل عن قبائل بادية الشام

منذ ست وستين سنة نشر المسيو كوسن ده برسڤال كتابهُ المشهور في تاريخ العرب

قبل الاسلام وهو الكتاب الذي مهما اطنبت في مدحه لا اوفيه حقهُ . وقد اعتمد في اخباره عن عرب الجاهلية على كتاب الاغاني قبل ان طُبع فدلَّ على مهارة فائقة في تبويب كتابه وتفصيله ودقة بحثه وبلاغة عبارته . ولكن اتسعت المعارف بعد ذلك وصار في الامكان ان يُتناوَل هذا البحث من جديد . وعلينا في رأيي بنوع خاص ان نترجم الاشعار القديمة ونشرحها مستعينين بما لدينا من الوسائل الجديدة . ولا يخفى ان المجال لم يتسع حتى الآن للمؤرخ . فيجب ان تطبع الاشعار اولاً باصلها العربي ولما كان فهمها متعذراً من غير شرح الاَّ على الخاصَّة من علماء العربية فعلى ذوي الشأن ان يشرحوها شرحاً يوضح معناها للذين يريدون ان يستنبطوا منها الحقايق التاريخية . ولا يحسن نشر شيء من الاشعار القديمة من غير ترجمة ولكنها لا تترجم ترجمة صحيحة الاَّ بعد درس دقيق وبحث واسع . ولقد تقدَّمتنا فرنسا والمانيا في هذا المضمار فعسى ان يقوم منا من يقتفي خطواتهما

العام الماضي والحالة المالية

تفاءلنا في اول العام الماضي ان يكون من اكثر الاعوام يسراً على هذا القطر لان العام الذي قبلهُ كان عام رخاء زاد ثمن الصادرات فيهِ فبلغ اكثر من اربعة وثلاثين مليوناً ونصف مليون من الجنيهات وقلَّ ثمن الواردات فبلغ اقل من ستة وعشرين مليوناً اي زاد ثمن الصادر على ثمن الوارد اكثر من ثمانية ملايين ونصف مليون من الجنيهات . وهي تكفي لايفاء ربا دين الحكومة وديون الاهالي وتزيد عليها نحو ثلاثة ملايين ولذلك زاد الذهب الوارد الى القطر على الذهب الصادر منهُ اربعة ملايين من الجنيهات

هذه كانت حالة القطر المالية سنة ١٩١٢ وكنا نحسب ان اليسر يبقى مطَّرداً فيهِ ولا سيما لما ثبت ان القطن المصري نجا من الآفات والقطن الاميركي أُصيب بها وقدرت مصلحة الزراعة الموسم المصري بنحو ثمانية ملايين وربع مليون قنطار . او الظاهر ان تجَّار القطر اغترُّوا بذلك واغترَّ معهم الموسرون فاكثروا من جلب البضائع والانفاق على الكماليات . حتى الحكومة لم تراعِ الاقتصاد في نفقاتها فزادت رواتب موظفيها ومهَّدت الطرق ووسَّعت الساحات . ولكن جاء فيضان النيل واطئاً فحطَّ القطن وقلَّ الموسم والتهت السنة وثمن الصادرات اقل ممَّا كان في العام السابق نحو ثلاثة ملايين من الجنيهات وثمن الواردات اكثر ممَّا كان في العام السابق نحو مليونين فلم يبقَ من الفرق بين ثمن الصادرات وثمن الواردات سوى ثلاثة ملايين وثمانمئة